العراق

ومعالم الحضارة الإسلامية الزاهرة

أ.د. محمد عبد العليم العدوي

الأستاذ بجامعة الأزهر

ورئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بكلية اللغة العربية بالمنصورة – سابقاً

العراق[1] .. موقعه :

يقع العراق في جنوب غربي آسيا بين دائرتي العرض ٢٩ و٣٧ ° شمالاً، وبين خطي طول ٣٩، ٤٨ ° شرقاً، وهو جمهورية عربية إسلامية.

مساحته :

وتبلغ مساحة العراق حوالي ٤٣٤٠٠٠كم٢، بالإضافة إلى نصف المنطقة المحايدة بين العراق والمملكة العربية السعودية الذي تبلغ مساحته ٣٥٢٢كم٢، ويطل العراق بساحله الجنوبي على الخليج العربي، وتجاوره الكويت والمملكة العربية السعودية من الجنوب، والأردن من الجهة الغربية وسوريا من الجهة الشمالية الغربية، وتركيا من الشمال وإيران من الشرق، ووحدة النقد في البلاد الدينار العراقي[2].

---

(١) سمى العراق عراقا لأنه سفل عن نجد، ودنا من البحر أخذا من عراق القربة وهو الجزء الذي في أسفلها (البغدادي: تاريخ بغداد أو مدينة السلام دار الكتاب العربي – بيروت، ابن منظور: لسان العرب: مادة عرق وقيل سمى العراق عراقا لصب المياه إليه من دجلة والفرات وغيرها من الأنهار وأظنه مأخوذا من عراقي الدلو في القربة (السعودي: مروج الذهب جـ٢/٦٩ ط. المكتبة الإسلامية – بيروت: تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

(٢) د. حسن عبد القادر صالح وآخرين، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

واللغـــة العربـــية هي اللغة الرسمية، وبعض السكان يتكلمون الكردية والأشورية والأرمنية.

والتوزيع الجغرافي على النحو التالي:

عرب ٧٥% – ٨٠%، أكراد ١٥ – ٢٠%، تركمان وأوربيون أواخر ٥%، وذلك وفق تقديرات سنة ٢٠٠٢م.

ويمـــثل المسلمون ٩٧%: شيعة ٦٠ – ٦٥%، سُنة ٣٢ – ٣٧% وقد قسمت العراق إدارياً إلى ثماني عشرة محافظة هي:

دهـــوك، أربيل، نينوي، التاميم، السليمانية، صلاح الدين ديالي، بغداد، الأنـــبار، الواسط، بابل، كربلاء، القادسية، ميسان، النجف الأشرف، ذي قار، المثنى، البصرة[٣].

السكان والعمران :

يـــبلغ عـــدد السكان وفق تعداد ٢٠٠٢م ما يقرب من خمسة وعشرين ملـــيوناً، ومعظم سكان العراق من العرب المسلمين إذ تبلغ نسبتهم كما ذكرنا ٩٧% ويـــتقارب أهل السنة في عددهم مع الشيعة بصفة عامة، ويتركز غالب السنيين في النصف الشمالي حيث يشملون العرب هناك بدوهم وحضرهم، كما يشـــملون الأكراد والتركمان، كما يوجد السنيون أيضاً في بغداد والبصرة، إلا أن غالبـــية الشـــيعة يتركز ون في النصف الجنوبي من العراق وخاصة في جنوبي نهر ديالة.

---

(٣) فتحي محمد إبراهيم: الحرب على العراق صـ ٦، ٧ ط. مركز العروبة للدراسات والبحوث ٢٠٠٣م.

ويـبلغ عـدد المسيحيين في العراق نحو نصف مليون نسمة ٤% من مجمـوع السـكان، وهم ينتمون لطوائف متباينة من المسيحيين الشرقيين مثل الـروم الكاثوليك واللاتين والأرثوذكس والأرمن والسريان والكلديين، وتوجد جماعاتهم في معظم المدن الكبرى بالعراق إلا أن وجودهم الرئيسي يتركز في محافظة الموصل، وقد تناقص عدد اليهود في العراق نتيجة هجرة الكثير منهم إلى فلسطين المحتلة وكان عددهم بالعراق ١٠٠٠٠ في عام ١٣٦٥هـ أصبح حالـياً ٢٥٠٠ نسـمة وإلـى جانب النصارى واليهود توجد مجموعات دينية صغيرة العدد مثل الصابئة الذين يبلغ عددهم ٢٠,٠٠٠ نسمة واليزيديين الذين يبلغ عددهم ٣٠,٠٠٠ نسمة.

واللغـة العربية كما أشرنا من قبل هي لغة البلاد الرسمية التي يتحدث بها العرب وكثير من عناصر السكان الأخرى غير العربية وفي العراق أكثر من مليوني كردي من المسلمين السنيين الذين تجمعهم مع عرب العراق وحدة الإسـلام، وتبلغ نسبة الأكراد ١٠% من مجموع السكان وهم يتمركزون في شـمالي شرق العراق وخاصة في منطقة جبل كردستان، ويمثلون نسبة عالية بين سكان مناطق السلمانية وأربيل وكركوك والموصل وقد جرى الاتفاق على منحهم استقلالا ذاتيا ضمن نطاق العراق الموحد والى جانب هؤلاء يوجد من المسـلمين التركمان في شمالي العراق ويبلغ عددهم ١٦٠,٠٠٠ نسمة واللور فـي شـرقي العراق وعددهم ١٢٠,٠٠٠ بينما يتركز الآشوريون المسيحيون قـرب الموصل وجنوبي بغداد ويبلغ عددهم ٧٠,٠٠٠، وتتكلم العناصر غير العربـية لغاتهـا الخاصـة إلى جانب اللغة العربية أحيانا ومنها الكردية التي يتحدث بها نحو ١٠% من سكان العراق، بينما يستعمل الفارسية بعض القبائل فـي شـرق العراق ٣% من مجموع السكان ويستعمل التركية بعض سكان شمال العراق ٢% من السكان.

وتـزداد كثافة السكان في العراق على طول المجاري المائية وخاصة في المدن مثل بغداد والبصرة والموصل ويتركز حوالي ستة ملايين نسمة في بغداد عاصمة العراق، بينما يعيش في كل من مدينتي البصرة والموصل قرابة المليونيـــن، وقد اتجهت الحكومة العراقية – قبل الحرب الأمريكية البريطانية التـــي شـــنت على العراق في أواخر شهر مارس ٢٠٠٣م(*) – في السنوات الأخـــيرة إلى الحد من هجرة السكان من الريف إلى المدن فقامت مشروعات للتنمية الريفية حتى ارتبط سكان الريف بقراهم، كما عمل الإصلاح الزراعي علـــى تعمـــير مناطق كادت تخلو من السكان ومن المشروعات بناء المساكن الشـــعبية وإدخال الماء والكهرباء إلى القري والعناية بالتعليم عن طريق إنشاء المـــدارس والعـــناية بالجامعـــات ومراكـــز البحث العلمي، والعناية بالصحة والمرافق العامة وحفر قنوات للرى لزيادة الإنتاج الزراعي، والاهتمام بالتربة وصيانتها وإرشاد السكان الريفيين إلى أساليب الزراعة الحديثة.

وتتمـــتع العراق بثروات معدنية أهمها البترول الذي يتم استخراجه من مناطق شتى أهمها حقول كركوك واهتم المسئولون بتصدير البترول وتصنيعه بإقامـــة مصـــاف لـــتكريره وإنشاء مصانع للبتروكيماويات وامتلاك أسطول عراقي لناقلات البترول.

ونظراً لوجود نهري دجلة والفرات وروافدهما قامت مشروعات للرى وتشـــجيع الإنتاج الزراعي لاسيما القمح والمحاصيل الأخرى كالأرز والفواكه ويأتـــي الـــتمر تالـــياً للبترول باعتباره سلعة تصديريه في العراق إلى جانب صـــناعات أخـــرى كالمنســـوجات والأثـــاث والأحذية هذا إلى جانب الثروة الحيوانية.

(*) والتي أحدثت دمارا شاملا في أنحاء العراق وتآكل الأخضر واليابس وأصبحت العراق محتلة ولم تنته الحرب.

ويتصـــل العراق بالعالم الخارجي عبر مطارات دولية وموانئ بحرية في الفاو وأم قصر وتوجد شبكة طرق بريد خارجية تربطه بالأقطار المجاورة إلـــى جانـــب الســـكك الحديديـــة والتي أهمها خط بغداد الموصل تل كتشوك ٥٢٩كـــم٢ وخـــط البصرة بغداد ٥٦٩ كم٢ وتم التخطيط للمزيد من الخطوط الحديدية، لربط المدن بالداخل والخارج(٤).

العراق قبل الفتح الإسلامي :

كان العراق من أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً فقديماً تعاقبت عليه الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرناً قبل الميلاد فالبابليون والأشوريون والكلدانيون والفرس واليونان، كل هؤلاء أنشأوا في العراق ممالك تختلف صيغتها وكانت مدنيـــتهم مـــناراً يلقي أشعته على ما حوله من البلدان، وقديماً عرفه العرب، فنزلـــت فيه قبائل من بكر وربيعة ثم كونوا فيه إمارة هي إمارة المناذرة في الحيرة(٥)، وقد غلب الفرس على العراق قبل الفتح الإسلامي.

علاقة المسلمين بالفرس :

وقـــد بدأت علاقة المسلمين بالفرس منذ أن أرسل رسول الله ﷺ رسله وشـــعراءه إلى ملوك العالم آنئذ ورؤساء العشائر في جزيرة العرب وذلك في العـــام الســـادس الهجري بعد صلح الحديبية يدعوهم إلى الإسلام وكان ممن أرسل إليهم كسرى أبرويز الثاني ملك الفرس أرسل إليه الصحابي الجليل عبد الله بـــن حذافة السهمي برسالة يدعوه فيها إلى الإسلام(٦)، ولكنه أخذته العزة بالاثم وأبي أن يتبع هذا النبي العربي فمزق الرسالة وأرسل إلى بالذات عامله

---

(٤) البلدان الإسلامية: مرجع سابق (بتصرف).
(٥) أحمد أمين: فجر الإسلام ط. النيضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.
(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ط. صـ٦٥٤ ط. دار المعارف، مصر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم جـ٣، ٤.

علـــى اليمـــن يأمره أن يذهب إلى مكة ويقبض على هذا الأعرابي الذي تجرأ على إرسال خطاب إليه.

ولمـــا علـــم الرسول ﷺ بأن ملك الفرس مزق الخطاب دعا عليه قائلاً (مـــزق الله ملكـــه)[٧]، فاستجاب الله دعوته وقام ابن كسرى شيرويه فقتل أباه وتمزق ملكه.

الفتح الإسلامي للعراق :

بعد أن استتب الأمن في الجزيرة العربية بعد أن قضي أبو بكر رضي الله عـــنه علـــى فتنة الردة حيث عقد أحد عشر لواء لحرب المرتدين لاسيما الذيـــن حرضـــهم الفرس من القبائل العربية من أمثال مسيلمة الكذاب وسجاح وأدى ذلك إلى الاشتباك الحربي بين المجاهدين المسلمين وبين فلول المرتدين على ساحل الخليج شمالاً بقيادة المثني بن حارثة الشيباني.

وكان المثني من أولئك القواد الشجعان الذين أبلوا بلاءً حسناً في قتال المرتدين وكانت أخبار انتصاراته تتهادى إلى أبي بكر الصديق ﷺ فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه فقال قيس بن عاصم أما أنه رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا قليل العدد ولا ذليل الغارة، ذلك المثني بن حارثة الشيباني[٨]، وقد استأذن المثني أبا بكر في غزو العراق، فجاء إليه قال لـــــه: يـــا خليفة رسول الله ﷺ استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعـــاجم من أهل (فارس) فكتب لـــه أبو بكر في ذلك عهداً فسار حتى ترك خفان[٩]، ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا[١٠]، وجمع المثني حوله من بقى على

---

(٧) البلاذري: مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٦ تحقيق د/ صلاح الدين المنجد.

(٨) خفان بفتح الخاء وتشديد الفاء موقع قرب الكوفة فوق القادسية ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٧٩/٤ ط. دار صادر بيروت ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان مرجع سابق ٢٩٥.

(١٠) القطيف إحدي مدن البحرين آنئذ: ياقوت معجم البلدان ٢٧٨/٤.

الإسلام من أهل البحرين ثم اتخذ طريقه من البحرين إلى الشمال محاذياً الخليج العربي (الفارس) حتى نزل في قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين (الفرات ودجلة).

فتحدث إليهم وتعاهد معهم، بعد أن علم مقدار الظلم الذي وقع عليهم من الفرس، كما علم أن هؤلاء العرب من تغلب دايار والنمر، على استعداد للاستجابة لكل دعوة تخلصهم من دهاقين – حكام القرى – الفرس واستبدادهم.

وزحف المثني في ثمانية آلاف مقاتل واصطدم بالفرس ودارت بعض المعارك، انتصر فيها المثني وأخضع القطيف[١١].

إلا أنه وجد مقاومة من جيش العدو فتريث حتى يأتي المدد من الخليفة لاستجابة لرسالته.

خالد بن الوليد وعياض بن غنم ردءا للمثني :

واهتم أبو بكر ﷺ برسالة المثني وأمر بتوجيه جيشين إلى الشمال جعل أمرة الأول إلى خالد بن الوليد ﷺ (ومعه المثني بن حارثة) للزحف على الأبلة[١٢] – وكتب أبو بكر إلى المثني إني قد وليت خالد بن الوليد فكن معه – ثم مواصلة الزحف إلى الحيرة[١٣]، فقال له (أن سر إلى العراق حتى تدخلها وإبدأ بفرج الهند وهي الأبلة وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم[١٤].

---

(١١) بلد على شاطئ دجلة أقدم من البصرة: معجم البلدان ط. ٧٧.

(١٢) الحيرة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على فوضع يقال له النجف معجم البلدان جـ٢، ٢٢٨.

(١٣) الطبري في تاريخه جـ٢/٣٤٣.

(١٤) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة وهي إلى الشام أقرب: معجم البلدان جـ ٤٨٧/٢.

وجعل أبو بكر ﷺ أمرة الجيش الثاني إلى عياض بن غنم ووجهته دومة الجندل[١٥]، ثم المسير إلى الحيرة فإذا سبق أحدهما الآخر كان أميراً على صاحبه[١٦]، وذلك في المحرم سنة اثنتي عشرة[١٧]،تقدم خالد بن الوليد ﷺ فأتي العراق من جنوبها وتألف الناس ودعاهم إلى الله عز وجل ولم يكره أحداً على المسير معهن ولم يستعن بمن ارتد عن الإسلام وإن كان دعا إليه واصطحب كل امرئ حرية من المسلمين وذلك تنفيذاً لأمر أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- فكثر جيشه حتى بلغ عشرة آلاف مقاتل ولم يلقى هذا الجيش مقاومة في طريقة إلى العراق وقد أمد أبو بكر خالدا بالقعقاع بن عمرو التميمي فقيل أتمده برجل واحد؟ فقال أبو بكر ﷺ (لا يهزم جيش فيهم مثل هذا[١٨] كما أمد عياضاً بعبد غوث الحميري.

وهكذا كانت حنكة الصديق ﷺ وحكمته في تسيير ثلاثة جيوش لفتح العراق الذي استقام للمسلمين أسفله والواد وضفاف الفرات على كلا جانبين وبخاصة الضفاف الغربية وخضعت الحيرة والأنبار في عام ١٢هـ واتصل ما بين الشام والعراق وشبه الجيرة العربية.

وفي عام ١٣هـ توفي الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ والذي كان قد أوصى عمر ﷺ بأن يندب الناس لمؤازرة المثنى بن حارثة وإتمام فتح العراق فأرسل عمر ﷺ النجدات إلى بابل بقيادة أبي عبيدة بن مسعود الثقفي[١٩]، وأوصاه بقوله (اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ولا يجتهد سرعاً حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث

---

(١٥) الطبري في تاريخه جـ٢/٣٤٧.
(١٦) ابن كثير البداية والنهاية جـ٢/٣٤٢ ط مطبعة السعادة. القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م، ط. دار الغد العربي القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م.
(١٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ط. دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
(١٨) الطبري في تاريخه جـ٢/٤١٤، وابن الأثير: الكامل جـ٢/٤١٦.
(١٩) الطبري في تاريخه جـ٢/٤٤٤.

الذي يعرف الفرصة واللف[٢٠]، والتقي أبو عبيدة مع المثني وتوالت المعارك بينهم وبين الفرس واستشهد أبو عبيدة في موقعة الحر وتولي قيادة الجيوش المثنى بن حارثة حتى انتصر المسلمون في معركة البويب قرب الكوفة على جيوش الفرس بقيادة مهران وقد اتبع المسلمون انتصاراتهم في البويب بغارات تحت قيادة المثني بن حارثة على أمكنة مختلفة للفرس.

وفي عام ١٤هـ (٦٣٥م) لقيت الجيوش الساسانية بقيادة قائدهم العام رستم هزيمة ساحقة في معركة القادسية[٢١].

وكان قد تسلم قيادة المسلمين في العراق سعد بن أبي وقاص ﷺ والذي أوصاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عند تحركه فقال له: "يا سعد لا يغرنك أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه"، ووصاه بالصبر، وانطلق سعد ﷺ بمن معه حتى وصل إلى العراق فوجد القائد البطل المثني بن حارثة قد لبي نداء ربه، وقد خاض معركة القادسية التي تعد من المعارك الفاصلة في التاريخ وحقق انتصاراً مؤزراً للمسلمين، وقد تابع سعد الزحف بقواته حتى تم فتح المدائن[٢٢] عاصمة الفرس ودخل القصر الأبيض وهو يتلو قوله تعالي "كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ"[٢٣]، وصلي

---

(٢٠) القادسية قرية قرب الكوفة على حافة البادية: معجم البلدان جـ٢٩١/١.

(٢١) الطبري في تاريخه جـ٤٨٢/٢، ابن كثير: البداية والنهاية جـ٢٩١/٤.

(٢٢) المدائن هي سبع مدن بين دجلة والفرات جعلها العرب مقراً لحكمهم، معجم البلدان جـ ٧٤/٥

(٢٣) آية ٢٥ ــ ٢٩ سورة الدخان.

صلاة الفتح ثمان ركعات لم يفصل بينهن[٢٤]، وذلك في عام ١٤هـ - ٦٣٥م، وقد استخدمت العراق بعد ذلك كقاعدة انطلاق للجيوش الإسلامية المتجهة شرقاً لفتح فارس وانتصر المسلمون على الفرس في معركة جلولاء في عام ١٦هـ - ٦٣٧م، وتمهد السبيل للانتصار الحاسم على الفرس في المعركة الفاصلة وهي معركة نهاوند بأرض إيران وتدعى فتح الفتوح، وحين انتشر الإسلام في العراق بعد تأمين فتحه أصبح جسداً طبيعياً لنشر الدعوة الإسلامية وامتداد فتوحها في بلاد المشرق حيث انساح المسلمون حتى وصلوا إلى ما وراء النهر وإلا بلاد السند حتى وصل الإسلام إلى بلاد الصين.

---

(٢٤) الطبري في تاريخه جـ١٦/٤.

obeikandl.com

ازدهار الحضارة الإسلامية في العراق

عنى المسلمون في فتوح العراق بالدعوة إلى الله والتمكين لدينه في الأرض وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وكما أحيوا موات القلوب أحيوا موات الأرض وأقاموا مدناً زاهرة صارت منارات لحضارة الإسلام حيث مَصَّر سعد بن وقاص ﷺ مدينة البصرة ومدينة الكوفة وبني أبو جعفر المنصور بعد ذلك بغداد فصارت هذه المدن الثلاثة معالم بارزة على حضارة الإسلام التي استمرت عدة قرون وكان لها أثر بارز في الحياة العلمية الإنسانية لاسيما أوروبا.

ونتناول في الصفحات التالية الحديث عن البصرة، ثم الكوفة، ثم بغداد، وعن الحياة العلمية وأثرها في الازدهار الحضاري.

أولاً : البصرة : وتمدنها :

البصرة مدينة كبرى بجنوب العراق قريبة من ملتقى مصب الرافدين على الخليج العربي والمسافة بينها وبين بغداد تقرب من ستمائة كم وقد سميت بهذا الاسم لأنها أقيمت في أرض حجارة رخوة فيها بياض.

وقد تم إنشاء البصرة لتكون مقراً ومنطلقاً للجيش الإسلامي الفاتح بقيادة سعد بن أبي وقاص ﷺ والذي اختار هذا الموقع عقبة بن غزوان قائد إحدى الفرق حيث عسكر بجنده في موضع البصرة سنة ١٤هـ وكانت أرضاً نفرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب وفي طريق البر إلى الريف ودونها مناقع ماء فيها فتصب.

وقد بدأ عقبة ببناء المسجد الجامع أولاً اقتداء بما فعله رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، وقد اختطه بيده ليكون منارة للعلم ومصدراً للإشعاع الحضاري في المنطقة، وأقام دار الإمارة بالقرب من المسجد ثم قامت خطط

القبائل حوله، وخططت الشوارع حيث جعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً، وعرض زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحه لربط خيلهم وقبور موتاهم.

وكانت المنازل من القصب الذي كانوا ينزعونه إذا خرجوا للجهاد ويضعونه حتى يرجعوا من جهادهم، فإذا رجعوا أعادوا بناءه، حتى بنيت بالآجر والجص، لاسيما مسجدها، وذلك حينما وليها زياد من قبل معاوية ﷺ، وقد أسرع إليها العمران والتمدن لموقعها الممتاز، وقد اتخذها الأمويون مقراً لإمارة العراق فاتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها فرسخين، كما كانت أيام العباسيين ملتقى التجار، ومرسى لمئات السفن التجارية، فتكاثرت ثروتها، وبنى أهلها القصور والحدائق وأنشأوا البرك والميادين ومن ذلك ندرك كيف قامت تلك المدينة على أسس ونظام هندسي دقيق فيما يخص المسجد والشوارع والمرافق وقد أخذت تشق طريقها نحو التمدن والحضارة حينما قام أبو موسى الأشعري ﷺ في سنة ١٧هـ بالتغلب على مشكلة مياه الشرب التي كانت تصلها مالحة، فبدأ مشروع حفر نهر الأبلة الذي تم في عهد عبد الله بن عامر سنة ٢٥هـ وغيره من مجموعة الأنهار التي زودت المدينة بالماء اللازم ووصلتها تجارياً بالأقاليم المجاورة[٢٥]، فدفع ذلك نموها وازدهارها، وهذا دليل على عناية المسلمين في فتوحاتهم بإحياء موات الأرض والعناية بالعمران البشري والأخذ بأسباب النهوض والرقي والمدنية.

ازدهار الحياة العلمية في البصرة [٢٦]

منذ إنشاء مدينة البصرة ومسجدها الجامع غدت مصدر إشعاع حضاري حيث ازدهرت فيها الحياة العلمية لوجود كثير من صحابة رسول

---

(٢٥) البلاذري: مفتوح البلدان صـ٤٣.

(٢٦) انظر في البصرة وحضارتها، الطبري في تاريخه جـ٢/٤٤، أحمد أمين فجر الإسلام صـ١٨٠، ط. النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٧٨م، أبو زيد سلبي، الخلفاء الراشدين.

الله ﷺ ومن التابعين الذين أقاموا فيها أو رحلوا إليها، حتى صارت في القرن الأول مركـزاً علمياً وأدبياً وانبعثت منه أنوار المعرفة على سائر أفاق العالم الإسلامي.

وقـد حفلـت البصرة بكثير من أماكن الإشعاع العلمي وأولها المسجد الجـامع الـذي كانـت تعقد فيه حلق العلم كما قامت الكتاتيب بجوار المسجد بالإضافة إلى مجالس العلم في الدور.

وحفلت البصرة أيضاً بمئات من علماء الفقه والتفسير والحديث وقراء القـرآن الكـريم ومعلميه، وهم صفوة من صحابة رسول الله ﷺ من السابقين الأولين، نعد منهم ولا نعددهم ومن هؤلاء: أبو موسى الأشعري ﷺ الذي ولى قضـاء البصرة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وكانت له حلقة علمـية فـي مسجد البصرة، وكذلك عبد الله بن المقفل المراني وعمران بن حصـين، ومـنهم حبر الأمة عبد الله بن العباس حين كان أميراً على البصرة للإمـام علـي، ومـنهم أنس بن مالك الذي كان آخر من توفي بالبصرة من صحابة رسول الله ﷺ وذلك سنة ٩٣هـ، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

ومـن مشـاهير التابعيـن الذين ساهموا في نشر العلم بالبصرة معبد الجهينـي وقـد حدث عن عمران بن عباس وابن عمر، وعبد الكريم بن أبي المخـارق الذي روى عن أنس ﷺ ومجاهداً وسعيد بن جبير، وعامر بن عبد الله العنـبري، وأبو الشعناء وأبو العالية ومسلم بن يسار، والحسن البصري، ومحمـد بن سيرين وقتاده، وعكرمة مولي بن عباس، وأبو غلابة، ومالك بن ديـنار وغـيرهم[٢٧] وبجانب العلماء الأعلام من الرجال وجدت في البصرة

---

(٢٧) ابـن سـعد: الطـبقات الكـبرى ط. دار الـتحرير القاهـرة ١٩٦٨م، ابـن كثـير: الـبداية والنهاية، الذهبي: تذكرة الحفاظ دار الفكر تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والعلام مطبعة القدس – القاهرة جـ٣، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء دار الكتاب العرب ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

عالمات شهيرات من أبرزهن نسيبة بنت حارث الأنصارية من فضليات نساء الصحابة وقد غزت مع رسول الله ﷺ تأسو الجراح وتداوى المرضي ولما أقامت بالبصرة روى عنها الحديث أنس بن مالك ﷺ كما أخذ عنها في الفقه، وأم عبد الله زوج أبي موسى الأشعري وزينب بنت نبيط بن جابر الأنصارية، ومعاذه بنت عبد الله العدوية من ربات الفصاحة والبلاغة والتفقه في الدين روت الحديث وروى عنها ومن فضليات التابعيات خيرة أم الحسن البصري وحفصة بنت سيرين وغيرهن ممن أثرين الحياة العلمية[٢٨].

الكوفة : تمدنها والحياة العلمية :

الكوفة هي الرملة الحمراء المستديرة أو كل رملة تخالطها حصباء[٢٩]، و قد تم بناؤها في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – والسبب في إقامتها هو وجود مكان يقيم فيه الجند بأسرهم ،و يستريحون من عناء الفتح، ويوجهون منه حملاتهم إلى المناطق المجاورة لأنه يوافق طبيعتهم ويحفظ على الجيش حيويته وقوته، وألا يكون الموقع فاصلاً طبيعياً بين هذا الجيش وبين مركز القيادة في المدينة المنورة لتأمين طريق المواصلات والإمدادات، وقد تحققت مزايا بنائها في هذا الموقع لعدة عوامل العامل الجغرافي والذي تمثل في صفاء جو المكان وجودة مناخه ووقوعه على حافة صحراء شبه الجزيرة العربية ولا يفصل بينه وبين المدينة المنورة ماء أو جسر ليسهل اتصال الخليفة بالفاتحين وحتى يتمكنوا من حماية ظهورهم بالصحراء عند لقاء العدو والعامل العسكري الذي جعل الكوفة نقطة ارتكاز، وقاعدة حربية يستريح فيها الجند بعد توغلهم في الفتوحات لتحمى ثغور البلاد، وتكون مركزاً لتموين ساحات القتال بالجند والمؤمن وكما قال عمر ﷺ (يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار).

---

(٢٨) كحالة: أعلام النساء مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
(٢٩) البلاذي: فتوح ٢٢٨.

ملامح تخطيط الكوفة وتمدنها :

مـــن أهـــم ملامح المدن الإسلامية جامعها ولهذا كان أول شيء خطط بالكوفـــة – المسجد الجامع – حيث قام رجل – في وسطه – رام شديد النزع قوى فرمى عن يمينه وبين يديه ومن خلفه وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهم.

وكـــان المسجد الجامع مربع الشكل، متسع الرقعة، وكانت ظلته مائتي ذراع، وأقيمت على أعمدة من الرخام جلبت من بلاد الفرس وقد حفروا حول الصـــحن خـــندقاً حتى لا يقتحمه أحد بالبنيان، وتم تخطيط مقر الإمارة بحيال محراب المسجد، وكان بناء الكوفة (المدينة) من الآجر الذي جلب من الحيرة، وظـــل هذا القصر منزلاً خاصاً للأمراء الذين تولوا إمارة الكوفة بعد سعد بن وقـــاص ﷺ كما بنى بيت المال بجوار دار الإمارة وبجوار المسجد حيث كان بيـــنها مائتا ذراع، كما خططت المناهج (الشوارع) من حول المسجد وجعلت الأساســـية منها – وفقاً لأمر الخليفة – أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً، ومـــا بين ذلك عشرين، وجعلت الأزقة سبعة أذرع، وتفرع من المسجد خمسة عشر منهجاً (شارعاً) من شماليه خمسة ومن قبلته أربعة، ومن شرقيه ثلاثة، ومن غربيه ثلاثة أيضاً، ثم وزعت القبائل من حول المسجد على هذه المناهج، وأمـــر ســـعد أحـــد عماله الحذقين أن يتولى أمر توزيع الخطط على القبائل، وكانت كل قبيلة تقسم الخطة المخصصة لها، كما كان منها مقبرتها المعروفة بها وقد أنشئ سوق الكوفة في الوسط وكان عبارة عن ساحة فضاء، لا توجد بها مبان أو سقف، اللهم إلا تلك الظلل التي عملت لتظلل البائعين في أماكنهم التي اختاروها ونشطت التجارة وازدهرت[٣٠].

---

(٣٠) الطبري في تاريخه، ابن كثير في البداية والنهاية.

وهكـــذا نشـــأت الكوفة ومُصرّت، وبدأت تخطو خطوات سريعة نحو التحضر والرقى حتى أضحت منارة من منارات العلم، ويشار إليها دائماً عند ذكـــر الإمام علي ﷺ حيث اتخذها مقراً له في خلافته، وكان لها أثر بارز بعد ذلك في انطلاق الفتوحات الإسلامية والحياة السياسية.

مجتمع الكوفة :

وقـــد ســـكن الكوفـــة منذ تأسيسها رأس العرب ووجوه الناس وصفوة أصـــحاب – رسول الله صلي الله عليه وسلم – حيث نزلها ثمانون وثلاثمائة رجـــل من أصحاب بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم، وكانوا للناس قدوة حســـنة وأسوة طيبة ولا غرو فيهم الذين أمنوا وعزروا ونصروا واتبعوا النور الـــذي أنـــزل مـــع رسول الله ﷺ وبجانب العرب آخرون من أبناء الديانات الأخـــرى الذيـــن جاءوا إليها من الحيرة والقرى المجاورة لها بعد زوال مجد الحـــيرة، كما هاجر إلى الكوفة بعض نصارى العرب من تغلب ونجران، وقد عامل المسلمون غيرهم معاملة حسنة تجلت فيها مبادئ الإسلام السمحة حيث حفظـــوا لهـــم دماءهم وأموالهم وحرياتهم وفاء للعهد الذي كتب لهم عند الفتح فكانـــت لهـــم الأديـــرة بالكوفـــة يمارســـون فيها شعائرهم، وكان من هؤلاء الكلدانيون، والسريان والآراميون وأطلق عليهم اسم الأنباط، وقد زاولوا مهناً أنـــف العرب من مزاولتها لانشغالهم بالفتوحات.وسكن الكوفة أيضاً بعض من الفـــرس حيث نزلها أربعة آلاف منهم ولكن الله هداهم إلى الإسلام بعد موقعة القادسية وانضموا إلى صفوف المسلمين مجاهدين في سبيل الله.

وهكـــذا جمعـــت الكوفة بين كل هؤلاء ومزجت بين صفاتهم المختلفة وأهوائهـــم المتعددة، وكان مجتمعها منذ تخطيطها أربعين ألفاً ثم ازداد سكانها بعـــد ذلك والذين عاشوا في رغد من العيش كما كان لازدهارها التجاري أثر كبير في رخاء العراق وزيادة موارد ثروته، وكان لتمدن الكوفة أثر بارز في جعلها معلماً من معالم الحياة العلمية.

الكوفة وازدهارها الحضاري :

منذ تأسيس الكوفة غدت مركزاً علمياً من أهم المراكز، حيث أقام بها أو هاجـر إليها كثير من العلماء في كل علم وفن، من تفسير وحديث وعلوم لغة كما ظهرت المساجلات النحوية في مدرسة الكوفيين والبصريين.

وتمثلـت مظاهـر تلك الحركة العلمية في الكتاتيب التي غنيت بقراءة القـرآن الكـريم وإقـرائه وتعليم القراءة والكتابة، كما نمى مسجدها الجامع بحلقات العلم وتعددت مجالس العلماء في دورهم.

وكان من أشهر العلماء الذين أثروا الحياة العلمية في الكوفة صفوة من أصحاب رسول الله ﷺ ومن التابعين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، سـعد بـن أبـي وقاص، عبد الله بن مسعود، حذيفة بن اليمان، علي بن أبي طالب، شريح القاضي، أبو موسى الأشعري، عبد الرحمن النخعي رضي الله عـنهم وأرضـاهم، وقد كان لكل منهم مدرسته وأصحابه ومن هؤلاء علقمة الأسـود، مسروق، عبيدة، أبو ميسرة، عمرو بن شرحبيل، الحارث بن قيس الحكـم بن عينيه وكلهم أصحاب مجلس عبد الله بن مسعود ونشطت الحركة العلمـية فـي الكوفـة فرحل إليها كثير من العلماء ليتلقوا العلم عن علمائها، وينشـروه في الآفاق ومن أشهر هؤلاء عالم المدينة وفقيهها أبو سلمة بن عبد الرحمن، والمحدث الثقة أبو صالح السمان أبرز علماء المدينة أيضاً ، مجاهد بـن جبـير عـالم مكة وتلميذ ابن عباس مكحول الدمشقي، نصر بن عاصم، محمد بن سيرين، ذربن حبيش، سعيد بن جبير والشعبي وغيرهم وغيرهم من أولـئك الاعلام الذين عرفوا أهل الفضل فسبقوا إليهم وأهل العلم فاستقوا منهم نميره وسقوا غيرهم فأحيوا بعلمهم القلوب وأناروا العقول.

وبجانب هؤلاء الأعلام من الرجال حفلت الكوفة بكثير من الصحابيات الفضليات، والتابعيات الكريمات اللائى أثرن في الحياة العلمية ومنهن زينب بنت عبد الله الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود وكانت رواية للحديث ، روت عن زوجها وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعا، وروى عنها ابنها أبو عبيده، ومسعود ، وابن أخيها وغيرهم .

ومن عالمات الكوفة أيضا وراويات الحديث النبوى الشريف جسرة بنت العامرية الكوفية تابعية ثقة روت عن أبى ذر رضى الله عنه وعلى وعائشة وأم سلمة رضى الله عنهم وعنهن كما روى عنها ، وكذلك كانت زينب امرأة قيس بن حازم من راويات الحديث النبوي الشريف روت عن عائشة، وصفية رضى الله عنهما وأرضاهما وروى عنها زوجها .

وهكذا كانت البصرة والكوفة منارتان من منارات الحضارة الإسلامية، ومن نور علمهما استضاءت بقية الأمصار وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده[٣١].

بغداد عاصمة الخلافة العباسية :

معلوم تاريخياً أن الخلافة العباسية تم إعلانها في مدينة الكوفة في سنة ١٣٢ هـ . ولكن العباسيين رأو نقل عاصمتهم إلى الحيره شمال الكوفة ، حيث يوجد أنصارهم إلا أنهم لم يتخذوها عاصمة دائمة لهم إنما أخذوا يفكرون في مكان أكثر صلاحية وأحسن مقاماً، وفي الحيره استقر رأيهم على أن يتخذوا الأنبار عاصمة لخلافتهم وهى تقع على بعد عشرة فراسخ من المكان الذي انشقت فيه بغداد، وقد أطلق السفاح على تلك المدينة اسم الهاشمية وانتقل إليها ونقل لها دواوينه وظل بها إلى أن مات .

---

(٣١) وانظر في الكوفة وازدهارها الحضاري، الطبري في تاريخه ٤٨١/٣ وما بعدها، الذهبي:تذكرة الحفاظ، ابن الأثير: الكامل ٣٢/٣ وفي عالمات الكوفة: الذهبي سير أعلام النبلاء جـ٤، ٥، ٦، ابن الجوزي: صفة الصفوة جـ٣.

ولمـــا تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فكر في اتخاذ عاصمة أخرى غير الأنبار الهاشمية وذلك لأن بعض الناس المخالفين لبني العباس قد صاروا فـــي تلـــك المدينة ، وهددوا أبا جعفر المنصور ، وحتى يأمن الاضطرابات والقلاقل ، فكر رجاله في مكان آخر تتوافر فيه مميزات تليق بعاصمة الخلافة وأبهـــة الحكم ورفض العيش فكان اختيار بغداد وكان تشييدها ، وتوافرت في هـــذا المكـــان المـــزايا التي كان ينشدها أبو جعفر المنصور فهو مكان طيب الهـــواء، حسن الجو ، محصن طبيعياً ضد غارات المعتدين ويسهل الاتصال بيـــنه وبين أكثر بقاع الخلافة الإسلامية وقد تحقق ذلك في مكان بغداد كله أو جلـــه ، فهـــى على نهر دجله وعلى ضفتيها تأتيها الميرة والطرائف من الهند والصين والبصرة والأهواز وواسط والموصل وديار بكر فتسهل الصلة بينها وبين البلاد الواقعة أيضاً على الفرات والقريبة منهم ، وهذا المكان بين أنهار لا يســتطيع العدو أن يصل إليه إلا على جسر أو قنطرة فإذا قطعت الجسور وأزيلت القناطر تعذر على العدو أن يصل إليه ، كما أن المكان وسط بين بلاد العرب والعجم .

يقـــول الخطيب البغدادي (حينما تحقق أبو جعفر المنصور من توافر المـــزايا بالمكـــان الـــذي تقـــرر أن تقام ، عاصمة خلافته عزم على بنائها ، فأحضـــر المهندسين وأهل المعرفة والبناء والعلم بالزرع والمساحة ، وقسمة الأرضـــيين فمـــثل لهم صناعتها التي في نفسه وطلب منهم أن يتبعوا ذلك في بناء المدينة .

وتم تخطيط بغداد لتكون مدينة مدوره حيث يقع في وسط الدائرة قصر الخلـــيفة المسمى قصر الذهب وجامع المنصور ، ولم يكن حول هذين بناء إلا دار بناها للحرس ، وأخرى بناها للشرطة وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصـــور الأحـــرار ورجـــال الدولة ودواوين الحكومة ثم دور الأهالى تتخللها الأسواق .

وكـــان هدف المنصور من هذا التخطيط ألا يكون أحد أقرب إلى داره من الآخرين في درجته وأن يكون الخليفة في مكان حصين ، يحيط به حرسه وأصفياؤه فيأمن بذلك السوء .

وكانت مناهج بغداد أربعة رئيسية تمتد من وسط الدائرة إلى الأسوار، ويـــتفرع من هذه الشوارع شوارع أخرى صغيره تصل بينها ، وأقيم المدينة فـــي أول أمـــرها سوران قطر دائرة السور الداخلي مائة زراع وعرضه من أســـفل عشـــرون زراعاً ومن أعلاه عشرون زراعاً وارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعـــرض مـــا بين السورين ستون ذراعاً ومائة ذراع وفي كل سور أربعة أبـــواب تقـــابل الشوارع الأربعة الرئيسية ويتجه كل باب منها إلى جهة سمى بأسمها وهى باب الكوفة وباب البصرة وباب خرسان وباب الشام ، وعلى كل باب قبه ذاهبه في السماء ، وعلى رأس كل قبه تمثال ، وبين كل قبتين ثمانية وعشرون برجاً ، ثم أقام المنصور سوراً ثالثاً داخلياً على النسق السالف زياده فـــي الإحكـــام وقـــد شـــارك في بناء بغداد عدد عظيم من الفعلة والمهندسين والفضـــلاء ومـــن أبرزهم الحجاج ابن أرطاه الذي أسهم في تخطيط المدينة ، والإمام أبو الحنيفة النعمان وكان يقوم بعد الأجر واللبس، وابتكر للعد طريقة جديدة وهى أن يعدو بالقصب اختصارا. وقد تم بناء بغداد سنة ٤٦ هـــ (٣٢) وقـــد بدت معالم مدينة تتمثل في تعبيد الطرق وتجميلها والعمل على نظافتها واســـتتباب الأمن بها والنظام فيها، ورغبة في وصلها بالفرات قام بحفر قناة للملاحـــة تأخذ ماءها من الفرات وتشق العراق ، فوصلت بغداد بالفرات ومن ثـــم أصـــبحت العاصـــمة الجديـــدة على صلة نهريه بآسيا الصغرى وسوريا وصـــارت مهـــوى الأفئدة ومسلماً للزائرين ولم يمضى على إنشاء بغداد فترة طويلـــة حتى أصبحت مدينة عامرة زاخرة بالمدنيين والعلم والفضل وتطلعت إلـــيها أنظار المسلمين، وتسمعت لأخبارها آذان العالم ، واحتلت بسرعة مكان

الصـــدارة فـــي السياســـة وفي النشاط الإجتماعي والعلمي، واحتفظت طويلاً بمكانـــتها العالية ومعالمها الحضارية على الرغم مما أصابها من هزات وما حل بها من خطورة . وصدق الله العظيم (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

بغداد والحياة العلمية في حياة المنصور : [٣٢]

أصـــبحت بغداد منذ أسسها المنصور حاضرة الخلافة العباسية ومنارة حضـــارتها ، حيث غدت مدينة المدائن ومركز التجارة وكعبة العلوم والأدب ومعين الثروة والرخاء ، كما أصبحت مبانيها الضخمة ومنتزهاتها الجميلة آية مـــن آيـــات الفـــن يقول الجاحظ : قد رأيت المدن العظام والمذكورة بالإتقان والأحكام بالشامات وبلاد الروم وفي غيرها من البلدان فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً ولا أجود استدارة ولا أنبل نبلاً من بغداد ويقول ياقوت في معجم البلدان (بغـــداد جـــنة الأرض، مدينة السلام ، قبة الإسلام ، ومجمع الرافدين، وغرة الـــبلاد، وعيـــن الطـــرق، دار الخلافـــة، مجمع المحاسن والطيبات، ومجمع الطرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فن، آحاد الدهر في كل نوع، هوائهـــا أغزى من كل هواء ، ومائها أعزب من كل ماء، ونسيمها أرقى من كل النسيم.

وقـــد اهـــتم أبو منصور اهتماما عظيما بالحياة العلمية في بغداد حيث وقف كل وقته علي نشر العلوم ، وتقريب العلماء وتشجيعهم ، وكان أول من عنـــي بحـــركة الـــترجمة حيث تشجع العلماء على ترجمة أمهات الكتب من السريالية واليونانية والفهلديه إلى اللغة العربية .

ومـــن أوائـــل المترجمين من اليونانيين أبو يحيى البطريق الذي ترجم للمنصور أهم تأليف جالينيوس وأقراط وبطليموس السندري ، ويوحنا (يحيى)

---

(٣٢) وانظر في بناء بغداد وتخطيطها وحضارتها ياقوت: معجم البلدان، البغدادي: تاريخ بغداد، الطبري في تاريخه د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام جـ٢ من صـ٣٢٦ وما بعدها.

بالماسون، وهي سرياني ترجم كثيراً من كتب الطب ، وأما شيخ هؤلاء المترجمين والذين أقاموا بعد ذلك في دار الحكمة أيام هارون الرشيد والمأمون فكان حنين ابن اسحق وبفضل هذه الترجمة ظل جزء كبير من تراث اليونان حيا لا وجود له إلا من خلال الترجمة العربية التي نقلت إلى شرق الدنيا وغربها .

وهكذا تمكن طلاب المعرفة من الغرب في مدى بضع سنوات أن يبدموا ما اتجه اليونان في سنوات طويلة وعنها أخذها الأوربيون في القرن الثاني عشر الميلادي ونقلوا هذه المعارف عن العبرية إلى اللاتينية وقد أنشأ المنصور ببغداد مدارس للطب والشريعة ، وصرف عليها أموالاً طائلة، وشجع العلماء على تدوين العلم وكتابه من تفسير وحديث وفقه ونحو ومعان وبيان وبديع وتاريخ فانبتت في عهده ثمار العلم وأخذت أنوار العلوم والفنون تستطع في سماء عاصمة الخلافة الإسلامية وتنشر دورها في مختلف أنحاء الدولة.

بغداد والعصر الذهبي :

وكان عهد هارون الرشيد العهد الذهبي للخلافة العباسية في كل المجالات السياسة والاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، حتى ذهت بغداد وازدهرت وصارت كعبة العلم وروضة العلماء وذلك لمَا امتاز به ذلك الخليفة من الإيمان العميق والعزيمة الصادقة والخلق الفاضل الكريم والحرص على مصالح المسلمين والعمل على تمكين دين الله في الأرض في دولة اتسعت أرجاؤها وامتدت بين الصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً حيث عم العدل وكثر الخير وفاض العلم بخير صافياً وبلغ من ثقة الخليفة بالله ، انه كان إذا رأي سحاباً تحمل المزن قال : امطري حيث شئت فسوف يأتني خراجك.

كمـــا امتاز هارون الرشيد بعقل رشيد وثقافة واسعة وصلاح وتقوى، فكـــان شاعراً، راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتميز، مهيباً عند الخاصة والعامة، وكان من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم وكان يحج عاماً ويغزو عاماً مدة خلافته إلا سنين قليلة، وكان يصلى كل يوم مائة ركعة، وحج ماشياً من مكة إلى عرفات، وكان إذا حج حج معه مائة ألف مـــن الفقهـــاء وأبـــنائهم، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، يقرب العلماء ويجزل لهم العطاء ويحرص على مجالسة أهل الفقه والأدب ويكره المراء في الدين كما كان شجاعاً مقداماً.

ولذا بلغت بغداد في عهده أوج ازدهارها الحضاري حيث ارتفعت فيها القصور الشامخة، وزادت موارد ثرواتها، وصارت واسطة العقد في التجارة من أقصي الشرق إلى أقصي الغرب فأصبحت كعبة العلماء والأدباء، فنشأ بها وترعـــرع فـــيها وشد رحاله إليها كثير من العلماء الأعلام في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والإنسانية والفلسفية والتجريبية كالفلك والرياضيات والطـــب، وســـطعت فـــي ســـمائها شموس أضاءت المعمورة بنور علومها ومعارفهـــا وعـــبرت الـــبحار والمحـــيطات مؤثرة تأثيراً كبيراً في الحضارة الإنسانية.

ومـــن أبـــرز هؤلاء العلماء الأئمة الأربعة. الإمام أبو حنيفة النعمان المـــتوفى ١٥٠هـــ صاحب المذهب الحنفي، الإمام مالك بن أنس إمام المدينة المـــنورة صاحب المذهب المالكي المتوفى ١٧٦هـــ وصاحب كتاب الموطأ، والإمـــام محمـــد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب الشافعي الذي ولد سنة ١٥٠ هـــ وتتلمذ على يد الإمام مالك ٢٠٤هـــ والإمام أحمد بن حنبل الذي ولـــد ببغداد سنة ١٦٤هـــ وتوفى بها، كما برز في التفسير مقاتل بن سليمان الأزدي وابن جرير الطبري، وفي علم الحديث الإمامان البخاري ومسلم وأبو داود والـــترمذى والنسائي وابن ماجة وكلهم تتلمذ على علماء بغداد ولا تزال

كتـــب هؤلاء العلماء الأعلام وآراؤهم نبراساً لطلاب العلم وزاداً يتزودون به في كل زمان وفي كل مكان من المعمورة.

كما نبغ في النحو أبو الأسود الدؤلي وأبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمـــد وســـيبويه والكســـائي والفـــراء، ومن الشعراء أبو تمام وابن الرومي والبحتري والمتنبي، ومن الأدباء عبد الحميد الكاتب والجاحظ، ومن المؤرخين ابـــن اســـحق والـــبلاذري، وابـــن سعد والخطيب البغدادي ومن الجغرافيين والرحالة ابن خرداذابه، صاحب كتاب المسالك والممالك وغيره من الرحالة.

وإذا كانت العراق في ظلال الخلافة العباسية الزاهرة قد حفلت بعلماء الشريعة واللغة والعلوم الإنسانية فقد حفلت أيضاً بكثير من العلماء في العلوم التجريبية من أمثال جابر بن حيان في الكيمياء، عمران الوضاح في الحساب، والحجاج بن أرطاه في الهندسة الذي خطط المسجد الجامع في بغداد في عهد المنصور ومن علماء الفلك ابن يختيشوع أيضاً والذي نبغ في علم النفس ومهد فـــي تشـــخيص الأمراض العصبية وعلاجها، وقد عينه هارون الرشيد رئيساً للأطباء في حاشيته وقد اهتم العباسيون في العصر الزاهر بنشر العلوم الطبية وتقدمهـــا وشجعوا الأطباء وأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية لا سما في موسم الحج، وقد استضاءت حواضر العالم الإســـلامي بعـــد ذلك بحضارة العراق، فازدهرت بخارى وسمرقند وطشقند وقرطـــبة وغـــرناطة وأشـــبيلية ثم القاهرة كما أثرت الحضارة الإسلامية في أوروبا واقتبست منها كثيراً من المعارف وهكذا سطع نور الحضارة من منارة بغداد على الآفاق فكتب تاريخاً مجيداً وعزاً تليداً وسجل على صفحاته حضارة زاهـــية زاهرة، يحكيها الخلف عن السلف وإن من لم يعرف ماضيه لا يعرف حاضره ولا يستشرف مستقبله.

وإذا فاتك التفات إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.